تجليات التجربة الصوفية في الأدب الجزائري
-بين التصور الديني والتخييل الفني-

The manifestations of the Sufi experience in Algerian literature Between religious perception and artistic imagination

نوال بوزكري*

قويدر قيطون♣

تاريخ الإرسال: 2021/12/24	تاريخ القبول: 2022/05/16	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

مثل الأدب الصوفي شكلا أدبيا مميزا لغة ومضمونا وذلك يعود لأصل تشكله وانتقاله من الحالة الخاصة التي يعيشها المتصوف وفق اعتقاده وتصوره الديني، ليكون في الأدب حالة إبداعية مميزة، سواء عن تجربة حقيقية عاشها الشاعر أم خيال سرح بصاحبه ليجعل من معجم المتصوفين ملاذا يعبر من خلاله عما يختلجه. ونحن نبحث هنا عن كيفية تشكل هذا النوع الأدبي، وقد عمدنا في هذه الورقة البحثية لعرض تجارب شعرية صوفية عديدة ومختلفة درسناها وفق منهج موضوعاتي وعن طريق المقارنة، استطعنا تحديد خصائص الشعر الصوفي عند كل شاعر وفقا لمنطلقاته وقناعاته واعتقاداته وبذلك تفسير ظاهرة التصوف في الشعر.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الموضوعاتية، الأدب، الشعر، الشاعر، المتصوف.

Abstract:

Sufi literature represented a distinct literary form, language and content, due to the origin of its formation and its transition from the special emotional state experienced by the mystic according to his belief and religious perception, to be in literature a distinctive creative imaginative state, whether from a real experience lived by the poet or a fantasy that was

***جامعة حمه لخضر الوادي bouzekri-nawal@univ-eloued.dz**

♣جامعة حمه لخضر الوادي kouider201230@gmail.com

released by its owner to make the mystic lexicon a haven that expresses from through it about what it is. We are looking here for the reality of Sufi poetry, specifically how it is.? And what distinguishes it from the techniques?In this research paper, we presented many different mystical poetic experiences that we studied according to a thematic approach and through comparison we were able to identify the characteristics of the mystical poetry of each poet according to his premises, convictions and beliefs and how to transform the mysterious emotional state into a creative language that simulates human feelings and makes it a means through which the soul expresses the world of the senses To a world whose power and radiance is divine love.

Keywords: *Sufism, thematics, literature, poetry, poet, mystic.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

المؤلف المرسل: نوال بوزكري، bouzekri-nawal@univ-eloued.dz

مقدمة

تميزت النصوص الأدبية ومنها -الشعر على وجه الدقة- بالتنوع في مواضيعها والقضايا التي تعالج فاستقطبت بذلك عديد القضايا الاجتماعية التاريخية السياسية والدينية، ولما كان الدين والمعتقد متصل أيما اتصال بالنفس والجانب الروحي والعاطفي خاصة، فقد استطاع أن يحتل مكانة مرموقة في الأدب، فنجد أن النصوص الدينية الإسلامية كانت تستعير من الأدب لغته وجماليته لإقناع الناس ودعوتهم باعتبار أن التصوف ظاهرة دينية إسلامية ترمز إلى حالة فريدة يعيشها الزاهد والناسك المتصوف في مستوى ما من التأمل العميق في حقيقة الكون والنفس والتعلق بالذات الإلهية لحد لا يقبل الوصف باللغة العادية؛ لذا ظهرت أبحاث كثيرة سابقة سهلت علينا مهمة الولوج لهذا الموضوع نذكر منها:

-دراسة محمد بلعباسي بعنوان شعرية اللغة الصوفية في الأدب الجزائري.

- عبد الحميد هيمة بعنوان الرمز الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر.

- دراسة إبراهيم منصور بعنوان الأدب والتصوف.

فلجأ المتصوف إلى الأدب ليلهمه اللغة القادرة على حمل مخزون ما يشعر به ويعيشه ليترجمه في نصوص شعرية ونثرية خاصة "لما أعلنت السلطة السياسية والدينية التصدي والعداء له فلم يجد بدا سوى الهروب والفرار من هذا الواقع المرير وذلك بإخفاء تجاربه الصوفية بإغلاق الخطاب الشعري عبر الرمز والغموض من الرقابة".[1] يبث من خلال النصوص الأدبية أسمى عاطفة ألا وهو العشق الإلهي، "فالحب الصوفي صادر عن صفة الجمال الإلهي وهو من معجم اللغة الصوفية بامتياز، إذ أن التصوف لا يصلح إلا بفضل الحب ولا يفسد إلا بسبب الحب وكذلك حديث الحب عند الصوفية الذي يتخذ من الحب الأرضي مجرد إطار في الدلالة على الحب الإلهي".[2]هذا الشعور المتفرد والذي يمثل أبرز موضوعات التصوف "الحب الإلهي قسيم المعرفة في التصوف الإسلامي وفي كل فلسفة صوفية من خلال ممارسة التجربة الصوفية التي يراها طريقا للحق مبتغيا الوصول إلى الحضرة الإلهية حيث يكون الفناء في الحضرة الإلهية هو الغاية والهدف".[3]

كان التصوف في أشعارهم إما لرغبتهم في الخوض في عالم جديد ولغة خاصة وإما لأنهم وحدوا في تلك التجربة بعض مما ينقصهم، "فالتصوف الحالي يخلو من سمات وخصائص الصوفية الأولى التي يعتنقها ابن عربي والحلاج والنقري وهو أيضا ليس شطحا أو دروشة وليست انزواء وانطواء بل ثورة شعرية لتغيير الواقع والسمو بالإنسان إلى منابع الروح... فهي تجربة وجدانية تسعى لإحياء الجوهر الكامن من الإنسان وخلق عالم روحي بديل نالتجربة الفنية." فنجح المتصوفة في تعريفنا بالتصوف ومراتبه وغايته وحتى تذوقناه في أشعارهم فكأنما هو تحليق باللغة الشعرية المعروفة إلى فضاءات غير مدركة ويمكننا أن نفهم على الأقل أن التصوف بالنسبة لهم يفوق التصورات العادية حول التعلق والحب الإنساني العادي؛ بل التصوف فلسفة روحية

تتآزر الكلمات وتتكاثف الدلالات لتعطينا ولو فكرة واحدة عن حقيقة التجربة الصوفية".

وتكون اللغة العنصر المشترك لتقريب الحالة والتعريف بها فتكون الإشكالات المطروحة .هل نجح الشاعر في ملامسة المشاعر لحقيقة ما يعيشه المتصوفة؟! وهل استطاع نقل ممارساتهم وتصوراتهم كما هي أم أن الشاعر يهدف فقط لإضفاء فنية وتشكيل لغة جديدة وحضور اللغة الصوفية عنصر ثانوي في شعره ومجرد إضافة وما تأثير ذلك على الدلالات المتشكلة؛ سواء في التصوف أو الأدب نظرا لأن القارئ هنا هو الذي يبحث عن طريق التأويل عن حقيقة وماهية وأبعاد الخطاب الصوفي الشعري؟!

التصوف كالموت فلا أحد يعلم ما هو وكيف تكون وقائعه إن لم يعايشه فحتى الراجع من التصوف يبقى مبهوتا لا يقدر أن يصف ما كان عليه إلا بلغة رمزية يخطئ الكثير في تأويلها.وهدفنا هو الوقوف عند تمثلات التصوف في الشعر الجزائري بين المعتقد والفنية من خلال عرض نماذج شعرية لمتصوفين كتبوا عن تجربتهم ونماذج لشعراء أرادوا أن يحاكوا التصوف بتوظيفه في أشعارهم وقد اعتمدنا على المنهج الأسلوبي وفق ما تطلبته الدراسة من خلال تحليل وصفي مقارناتي.

أولا - تعريف التصوف

1- التصوف لغة واصطلاحا

ورد في لسان العرب: "صاف يصوف صوفا. وصاف السهم إذا طاس وعدل عن الهدف".[4]

جاء تعريف التصوف من الصفاء والنقاء وقيل من كلمة صوفيا التي تعني الحكمة وعرف ابن الجوزي الجماعة التي تتبنى التصوف بقوله: "أن الصوفية ينسبون إلى قوم في الجاهلية يقال لهم صوفا انقطعوا إلى الله عز وجل في الكعبة وسموا صوفية

فمن نسبتهم إلى الصوف".[5] ومع ذلك فإن التعريف الذي لاق رواجا وكان أقرب لمنطق من عرف التصوف أنه جاء من لفظتي الصوف يقول الكلباني: "إنما سموا صوفية للبسهم الصوف".[6] هو لباس يصنع من الصوف كمادة أولية. ويعكس الزهد والتخلي عن الترف والبذخ والاكتفاء بالقليل مما يبقي على الروح في الجسد لا أكثر.

2- اصطلاحية التصوف وعلاقته بالعقيدة الإسلامية

تحول التصوف إلى ظاهرة دينية عقائدية لها خصائصها وواقعها واتسع مفهومها فنجد كثيرا من علماء الدين والمؤرخين الذين عرفوا التصوف تعريفا اصطلاحيا ومن ذلك نجد التعريف الذي قدمه الأمير عبد القادر أن التصوف هو: "جهاد النفس في سبيل الله ولأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والأحكام الربوبيةوجعل كل شيء في سبيل الله".[7] فبهذا التعريف ندرك أن التصوف أصبح نموذجا عن الذات المخلصة التي تبحث عن الذات الإلهية لتصل إلى منتهى المعرفة التي لا معرفة بعدها والتي تحقق الاطمئنان والراحة حين تدرك منتهى الوجود والغاية من خلق الإنسان. وقد عرف المؤرخ ابن خلدون التصوف بأنه:"العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذه ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة";[8] عرف عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته التصوف كممارسةإذ اختصرها في العبادة والتفرغ لهاوالزهد في الحياه من أبواب التصوف؛ لكن نعتقد أن التصوف في الحقيقة يتجاوز هذا الحد من العبادة إلى التجربة الشعورية التي تميز المتصوف عن غيره من العباد المتقين فكأنما هو درجة أخرى لا يبلغها كل من اختلى بنفسه للعبادة وزهد في دنيا راغبا في الآخرة، وقد وردت التعريفات الكثيره للتصوف تجاوزت الألف وذلك لما احتله من مكانة ولماحظي به من تصورات ومن تفسيرات ومحاولة فهم كنهه وماهيته. فكان النظر للتصوف فيإطاره العام على أنه قمة الورع.

يقول أحد المتصوفين:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه

ولا بكائك أن غنى المغنونا

ولا صياح ولا رقص ولا طرب

ولا اضطراب كان قد صرت مجنونا

إن التصوف أن تصف بلا كدر

وأن ترى خاشعا مكتئبا

على ذنوبك طول الدهر محزونا.[9]

يعتقد البعض أنالتصوف فيه من المبالغة الكثير بل وتمادي هذا بعض ما يعتقده من ينتقد التصوف وذلك لان قاموس الصوفي أوهم الكثيرين بان هناك تجاوزا للحد في الحديث عن الله وعلاقه الإنسان به؛ فهرب المتصوف من الكلام الغير واضح كليا إلىالفنية اللغوية والأدبية يوظف منها مايحاكي بعضا من شعوره وهذا تجنبا لحمله الانتقاد والتكفير التي يشنها عليهم المنتقدون يقول عبد الحميد هيمة:"السبب في نشأة الشعر الرمزي عند الصوفيين هو تلك الحملةالقوية التي شنها الفقهاء على المتصوفة فأخذ كل فريق يناوي الأخر(..) فضل الصوفية الترميز والتعميه في كلامهم... وقد جعل المتصوفة من ذلك الأسلوب الرمزي قناعا يسردون به الأمورالتي رغبوافي كتمانها عن العامة من الناس وعن الفقهاء".[10] وبهذا يكون أحد مميزات الصوفية التعمية والترميز ويبقى التصوف فكرة تختلج المتصوف وتتمكن منه فيجد أنه قد تاه في حبه للذات الإلهية وترفع بذلك العشق إلى درجات لا يدركها غيره مثلا نجد قول ابن عربي:

مـذ تألهـت رجعـت مظهـرا * وكـذا كنـت فيا فاعتصمـوا**

أنــا حبـل الله في كونكمــوا * فلزموا الباب عبيدا وخدموا**

ليـس في الجبة غيـر ما قالـه * الحـــــلاج يومـــا فانعمـوا**

عز الاله فما يحويه من احد * وبعـدهذا فإنا قـد وسعناه**[11]

ثانيا- العلاقة بين الأدب والتصوف

حين كان الأدب فن جميل مادته اللغة فإنه بذلك يدعو لكل جمالية ويتبنى كل خطاب مشحون بالعاطفة الوجدانية،فكان التصوف بحاجة للأدب والأدب احتاج التصوف ليعزز التجربةالأدبية ويعطيها ملامح جديدة. فإن كان المتصوف شاعرا أحيانا فالشاعر قد يكون متصوفا أو يحاكي التصوف و"يعد التراث الصوفي من أهم المصادر التي استخدمها الشاعر المعاصر كشخصيات وأصوات تعبر من خلالها عن أبعاد تجربتها في جوانبه المختلفة".[12]

فالشاعر تأثر باللغة وقاموس المتصوف وما أفرزته تجربتهم في بعض ما جاءت به فقد"انشغل الشاعر المعاصر بالعديد من الظواهر الفنية التي أسهمت في تشكيل مضامينه وبناءه ومن تلك الظواهر المواكبة لتطوره الاتكاء على التجربة الصوفية للاستفادة من العناصر المشتركة التي تجمع بين التجربةالفنيةوالتجربةالصوفية".[13] فكان التصوف في الأدب نوعا من الانزياح عن القالب اللغوي والمواضيع المكررة المستهلكة لتوظيف الرمز الصوفي في أعمالهم الأدبية لغوية وفكرية في الأدب وهذا يؤكد وجود علاقة بين الأدب والتصوف علاقة في اتجاهين لان غاية الشاعر والمتصوف.

واحدة وهي البحث عن الحقيقة المطلقة بالعاطفة الجياشة والإسهاماتالعميقة، "فقد ظلت العلاقة بين الشاعر والصوفي محاولة بعيدة للانطلاق من العالم العبثي بحثا عن أفكارا أكثر تجريدا يكتشف من خلالها الحقائق الكونية".[14]

كما أن الأدب احتاج للمفردات والتصورات الصوفية.فهاهم المتصوفة يجدون في الأدب بعض ما يمكن أن يعينهم على تمثل واقعهم باللغة "لم يتأثر شعراء الصوفية بغرض من أغراض الشعر العربي كما تأثروا بشعر الخمرة والغزل وكان لهذين الغرضين حضور قوي في الشعر الصوفي حيث استخدم الصوفيون مصطلحات العذريين وأساليبهم بالألفاظ وسبب ذلك عدم قدرتهم على استخدام لغة خاصة بالحب الإلهي الخالص فيترجمون تلك اللغةالتي اعتادوهاإلى لغةروحية".[15] الشاعر الصوفي لأجل وصف تجربته يعود للغة الأدبية الشاعرية يعتمد على المجاز والتورية والترميز ينزل بكل ثقل شعوره الخاص ليضعه في قالب لغة نصف بها الحالة المعروفة كحب الخمرة والمرأة والسلطان وهكذا...وهذا مابرع فيه الصوفيون من جعل اللغة والتجربة مزيجا لتشكيل كلام يجمع بين المدرك والمتخيل والمغيب.

فشكل الأدب الصوفي نقطة التقاء بين التجربة الصوفية والتجربة التي تتجلى فقط باللغة لدى الشعراء ليكون هناك خطا وهميا فاصلا صنعته اللغة. وفتحت أبواب التاويل والنقد لدراسة ظاهرة التصوف في الأدب"..الألفاظ العذرية والخمريةخلقت مشكلة لدى دارس الشعر الصوفي وبيانا لمقصودهم الحقيقي لتصحيح مقصوده كي لا يساوي القارئة شكا بان مقصودهم ارضي بل سماوي روحاني كما فعل ابن عربي في شرح ديوانه ترجمان الأشواق حين أنكره بعض الفقهاء".[16]فاللغة الرمز تفهم أحيانا على غير المعنى الذي وضعت له لذا سعى النقاد والمؤولون لتتبع الأدب الصوفي والتصوف فاصبح قضيه من قضايا الأدب "وهنا يفرض التأويل نفسه آداةلقراءة الشعر الصوفي ويصبح بديلا للتفسير".[17] التصوف إذ لا يمكن أن يتمثل في الأدبإلا من خلال الرمز واللغةالخاصةالتي تحاول أن تقدم الواقع الصوفي وهو في قمةولعه بذلك المحبوب فكان الحب مقدسامجردا من التجسيد الحسي إلى ما هو روحي خالص، "والشاعر لا يسعى من وراء هذا الحب لتحقيق الاتصال الحسي فهو حب روحي يتوجه من أسفل إلىأعلى

من الناس أو من السطح إلى العمق الارتداد إلى الذات والتوحد مع المعشوق كما يقول الشاعر:

"لا حلول والاتحاد ولكن للهوى شرعة ولي سكراتي".[18]

إذن تتشابه حالة المتصوف بحالة الشاعر فكلاهما ينأى عن عالم الواقع لعالم روحي غير محسوس "أن تتماس وتتماهى التجربة الشعرية مع التجربة الصوفية او الروحانية هي نوع من العودة إلى اللاشعور الجمعي إلى تجاوز الفرد إلى الذاكرة الإنسانية وأساطيرها إلى الماضي بوصفه نوعا من اللاوعي".[19] ونخلص إلى أن التداخل في التجربتين هو تأكيد على أن التجربة الشعرية وجدت في الحالة الصوفية ما يمنحها فوق الفنية شيئا روحيا وجدانيا عميقا ولكن يبقى السؤال هل يوظف الشاعر عناصر ومفردات ومواضيع التصوف لأنه استلهمها من حالة شعورية صوفية أم أنه مجرد توظيف فني عابر كأي توظيف لرموز أخرى.؟! سؤال يتكرر في كل مرة ونحن نحاول الوصول إليه في كل مرة بالحفر واستقراء ظاهرة التصوف والأدب.

ثالثا- القاموس الصوفي في الشعر الجزائري بين المعتقد والفنية

إن تحدثنا عن توظيف الرمز الصوفي في الشعر الجزائري القديم والحديث فإننا نجد في طلائع هؤلاء الأمير عبد القادر. عفيف الدين التلمساني.عبد الله حمادي. عمان لوصيف.يقول الأستاذ والباحث عبد الحفيظ جلولي": يبدو لي بأنه لا يمكن أن نبني المدخل لعلاقه الأدب الجزائري بالتصوف من دون التأصيل لتجربة أبي مدين الغوث والأمير عبد القادر الجزائري لأنهما بنيا الوسيلة التعبيرية التي يحتاجها الوجدان الصوفي على التجربة التي لا تتحصل سوى بالممارسة ومنهم بثقه أصول الخطاب الصوفي الذي يتكل على الغياب في حضور المقام وانتشال لوعة الذوق بما يجري على اللسان وبالتالي يكون الخطاب الصوفي اقل تجليا وهو من العناصر حسب معاناة التصوف من التخلي والتجلي إلى التجلي في النص المنفصل صاحبه عن التجربة"،[20] ذلك لأن التصوف

كمعتقد ظهر في الجزائر قبل عصر الأتراك وعرف انتشارا كبيرا خاصة في الغرب وبلاد القبائل ويعود ذلك إلى كثرة المدارس والزوايا المتخصصة في هذه الدروس وتعليم هذه الطرائق والدعوة إليها فكانت تجربتهم حقيقية عايشوها كما هي فكان شعرهم صوفيا بامتياز لا فرق بينه وبين ماكتب ابن عربي وشمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي وغيرهم...

وقد ترك المتصوفة تراثا كبيرا بما في ذلك الشعر والنثر فتأثر الشعراء والأدباء بجمالية ورمزية تلك اللغة وكتبوا على منوال المتصوفة شعرا ونثرا خاصة الشعراء المحافظون أصحاب القضايا والالتزام وذلك لما وجدوا عليه شعر المتصوفة النزيه عن كل شبهة وتجاوز فكان: "الشعراء الصوفيين هم أول من مارس إعادة التشفير اللغوي في الشعر قديما عن طريق نزع الدلالات الأولى الحسية والدنيوية لكلمات تتصل بمجالات الجنس الخمر وحالات النفس وإدراجها في أنساق رمزية جديده".[21] المتصوفة قد برعوا في استخدام الرمز وهذا ما جعل الشعراء يجدون في اللغة والقاموس الصوفي بعض مما يخدم أغراضهم الفنية والدينية

الإشكال الذي يعايشه ويعاني منه الشعر الذي وظف عناصر التصوف هو إشكاليه الغموض وعدم وضوح الرؤية للقارئ هل ما يقوله الشاعر والروائي ناتج عن تجربة صوفية ومعتقد نابع من ذات الشاعر أم انه مجرد توظيف فني لغوي يحاكي به خيالاته يكون بذلك النص مجرد تصور ذهني وأحيانا يسقط الشاعر في فخ نصوص غير واضحة تتكلم ما لا تطيق وتحمل ما لا يستوعب المعنى ولا يصل بشيء للقارئ ومرد ذلك لا لعجز الشاعر والأديب وإنما التجربة الصوفية وجب أن تعاش لتتمثل في النص معبرة عن واقعتها وإن كان الشاعر لم يعش التصوف فكيف سيصفه ويعبر عنه فقط هكذا فإذا كان للمتصوف روح التجربة وقالب تصاغ فيه مبدئيا عبراته. فما الذي يملكه

الشاعر ليحاكي تجربة لم يعشها بلغة هي ما يراها نهاية لخيالاته لأنه عهد شعورا بشريا تحمله اللغة الفنية حبالا كرها واضطرارا؟!

1- مقاييس الرمز الصوفي

ومن النقاد والدارسين من أقر بأن الأثر الصوفي في الشعر الجزائري إنما هو إضافة فنية ووجب دراسة النصوص من هذا المنظور لأنهم ليسوا بمتصوفة بل شعراء هواة في مجال التصوف ومطالعين لا معايشين له، "ولما كان هؤلاء الشعراء ليسوا متصوفة بالمعنى الذي كان عند متقدم الصوفية فان الدراسة تحاول الوقوف على الأثر الصوفي في شعرهم بوصفه منجزا مهما لشعر الحداثة الجزائرية وجانبا خصبا من آليات تشكل النص الشعري الجزائري الحديث".[22] فالباحث موسى كراو يرى أن التصوف عالم والتصوف عند الشعراء عالم أخر بل هو باختصار يقر بأن"مقاييس توظيف الرمز الصوفي لا تخرج بعيدا عن مقاييس توظيف الرمز الأسطوريأو الديني أو التاريخي الكل يعمل على استفزاز مخيلات القارئ بما كان يملكه من ثقافه عن تلك الشخصيات أو الأحداث وما على المتلقي إلا إعمال فكره وثقافته للبحث عن المعاني والدلالات وأسرار التوظيف والاستحضار".[23]

يتفق عبد الحفيظ جلولي والباحث عبد القادر العربي في أن تمثلات التجربة الصوفية في الشعر الجزائري لا تتعدى كونها عناصر جمالية بلاغية؛ يجد الشاعر فيها فسحة ليعبر عن ذاته المحلقة كما تحلق ذات المتصوف وهو في قمة اتصاله بحالة التصوف التي تنتابه كحالة من السكر أو من الغيبوبة التي يقطع فيها علاقته لعالم البشر وعالمه الحسي، يقول عبد القادر العربي: "إشكالية يعاني منها النص في الأدب المعاصر في صورة واضحة وكان التجربة الصوفية نص مغلق؛ فهي تجربة غامضة لا يوجد بها إلا المصطلح أما الحال فتبتعد عن المعاني الحقيقية لأسرار التجربة الصوفية والتي تظل بنمطية خاصة لا تقوى على تفعيلها إلا من خبر أسرارها".[24] ويتفق معه عبد

الحفيظ جلولي موضحا رأيه في كون القاموس الصوفي في الشعر لا يعني أن الشاعر في حالة تصوف أو مدرك لحقيقة ما تعايشه المتصوف ولا ماتعتقدهفالحال أقوىمن أن تحتويه اللغة المعروفة ولهذا انفصل في التصوف التصور للغةبين الحال والمقام لذا وجدت هذه الصعوبة في تشكيل لغة يمكن فهمها تترجم حال المتصوف ومع ذلك توجد طرائق في اللغة لإيصال المعنى الأقرب وإن لم يكن المعبر حقا عن واقع مايعيشه المتصوف حين تنصرف به وتتملكه هواجسه الروحية.

2- شروط الإبداع في الأدب الصوفي

يرى إذن كل من عبد القادر العربي وعبد الحفيظ جلولي ضرورة معايشة التجربة ليتمكن لاحقا الشاعر أو الأديب بشكل عام بالتعبير عنها لتصدر عن حقيقة لا من التمكن فقط من استحضار المعجم الصوفي، لأن التجربة الصوفية تجربة فلسفة وعميقة فالتعبير عنها يحتاج من تذوق التصوف حقا ثم يطوع اللغة ليستلهم من تجربته لغة مناسبة وقادرة على إيصال الدلالة للقارئ بصدق، ومع أن عديد النقاد ذهبوا إلى ما ذهب إليه هذين الناقدين لكن يبقى شعر الأمير عبد القادر تعبيرا صادقا عن التصوف ذلك لأنه تحول في آخر سنوات حياته إلى متصوف فكرس لغته الشعرية لحمل التجربة الصوفية وقد نجح في ذلك، فكانت نصوصه معتقدا وفنا زاخرا بكل قناعاته يصور فيه ثمرة تصوفه.

يقول الباحث عبد الحميد ختالة: "لعله ليس غريبا أن نقول بأن حال التصوف الأدبي في الجزائر له مساحة من الحضور يمتد تاريخيا إلى التصوف الذي قرأناه في شعر الأمير عبد القادر الجزائري قد عرفناه قبل...إن للتصوف متكئان الأول هو الزهد والثاني هو الحب الإلهي وإن الأمير قد تمثلهما معا في شعره وقد منح شعره الصوفي رغبة لدى لاحقه بأن يقتحم هذا المجد الشعري".[25] وللأمير عبد القادر قصائد كثيرة تعكس تجربته الصوفية كما عاشها منها قصيدة (يا من غدا عابدا لفكرة،قصيدة أستاذي الصوفي،

وقصيدة مسكين لم يذق طعم الهوى)، ولنؤكد صحة ما أشرنا إليه سنورد بعض من شعره لنتلمس حقيقة توظيفه للقاموس الصوفي وتمثله كمعتقد وتجربة لا كفنية تضاف للنص وموضوعاته

وفي (قصيدة تجلى المحبوب) يقول:

تجلى المحبوب من حيث يرى * فأعجبه أراه من حيث لا أراه**

وغيبتي به فغاب رقيبنا وزال * حجاب البين وانحشر المرا**

صرت أراه كل حين ولحظة* وقد كان غائبا وقد كان حاضرا**

وما عرف الخلاق إلا بجمعيه * من كل الوجوه تنافرا**

وواصلني فلا تناكر بعد * وقربني فكان سمعا وباصرا**

اسر إلي حيث لا بين بيننا بسر* حكى لطفى النسيم إذا سرا**

ولاطفني بقول الحق معلنا أني * قد اخترت قد اصطفيت بلا امترا**

فقد طالما قد كنت أتطلعإلى اللقاء * متع وكحل بالجمال الناظرا**[26]

فاللغة هنا وسيلة جعلها الشاعر خادمة للتصوف فنلاحظ أنه قد اتبع طريق ابن عربي والحلاج في تعبيره عن علاقته بالذات الإلهية كاملة في حالة الحلول والاتحاد فكأنما حين بلغ ما بلغه من حب وعشق للذات الإلهية يرى نفسه متحدا معها فهو جزء من الوجود والوجود عندهم وحدة كونية تمثل الواحد الأحد.فهذا الفضاء العرفاني وكون التصوف هي موضوع القصيدة ككل لذلك ما جعل شعر الأمير عبد القادر في قصائد الزهد والتصوف تخبرنا أنه عاش التصوف وتجلياته وكان معتقدا راسخا وزادته تجربته الشعرية السابقة للتصوف فنية وإبداعا منقطع النظير.وقد ركزنا أولاالأمر على ذكر الأمير عبد القادر لأنه أول شاعر جزائري يكتب في التصوف وخلف إنتاجات في هذا

المجال فاقت شعراء عصره بل ولازال لليوم اكثر الشعراء إنتاجا في هذا الميدان والجميل في شعره أنه يعلن فيه تصوفه واضحا دون الحاجة لتأويل أو قراءة تختلف فيها القرائح وتتهالك من أجلها النوابغ يقول في قصيدة أخرى طغى عليها التصوف.

يا عظيما قد تجلى كل مجله مجله

أنت مبدي كل باد أنت ابد أنتأجلى

حسنك الباري تعالى أن نرى عنده مثل

كل حسن مستعار من جمال قد تدل

كنت قبل النوم صبا اسأل المحبوب ميله

فأزال ستره عني فبدا للفضل وصله

زادني قرب احتراق فانا بالوصل

عجبي من عشق نفسي ما أحببت غير أصلا

أنا بدر أنا شمس أنا صبح قد تجلى

أنا نور أنا نور أنا برق أضاء ليلى

أنا الكاس أنا خمر أنا اسقي أنا املى.[27]

الناظر لهذه الإبداعات يدرك أن الأمير عبد القادر الجزائري خريج زاوية صوفية وهو فعلا ما حدث، فقد اتبع الطريقة القادرية واتبع خطى أبيه الذي كان شيخا في إحدى الزوايا لذا فشعره مكثف باللغة الصوفية الحية والمكابدات التي تختلج المتصوف، فنجح في تمثل التجربة الصوفية فعلا وقولا لذا لازال شعره حيا وأول ما يذكر من الشعر الصوفي يتبادر شعره كأول شاعر مجد ومتصوف ورع مزج الحياة العرفانية بالأدب فربط بين ما هو أرضي وما بين ما هو سماوي بلغة تكاد تخرج من

الحسية معه إلى سحائب وجدانياته الغيبية المبثوثة في أطراف قصائده، وقد كتبت قصائد كثيرة في التصوف منها ما كتبه عبد الله العشي وياسين بن عبيد.

وكانت أشعارا صوفية تقارب ما كتبه الأمير عبد القادر حتى أن البعض حكم على الشاعرين بأنهما عاشا تجربة التصوف وتمثلا وقائعها بالشعر ومنهم من أنكر عليهما ذلك ورأى أن قصائدهما هي رمزية فنية وباب فتحاه على الأدب لا من باب الورع والمعتقد بل من باب إضافة عنصر حي للغة "الشاعر عبد الله العشي لا ينشد التصوف بالمعنى الحقيقي إنما هو تصوف في لغته وأسلوبه ينفتح نحو فضاءات اللغة والعشق ليشيده لنفسه صرحا شعريا حدثيا من خلال اللغة والكتابة الفنية الحداثية".[28]

الشعر في عرف التصوف هو ترجمة لما صعب تفسيره ووصفه فيعمد المتصوف إلى بعض فنون الأدب يختار منها مايعبر به عن حالته فصنع لنفسه في الأدب طابعا ولغة معينة أصبحت قاموسا يرجع إليه الشعراء غير الصوفيين والمدركين في نفس الوقت لهالة اللغة الصوفية في بناء مجد اللغة وصناعة حداثة فنية وشعورية مما يدفع ليقلد المتصوف وينزاح نحو تصور جديد ليجعل التجربة الإنسانية أقرب للسماوية في محاولة للتسامي وتطهير الروح وإعلان التجرد من الحسيات في الحب الإنساني لذا كانت: "القصيدة الصوفية ذات أجواء خاصه تعطي لقراءاتها من البسطاء باهرا يطلبهم ويهزهم ولكنها في باطنها تعني قيم روحيه وجدانية فلا يغوص فيها ولا يحس حرارتها سوى أولئك الذين يملكون مفاتيح ألغازها ومضامينها".[29] فكثيرا هم الشعراء والروائيين الذين وظفوا التصوف كفنية لكن قليلا من نجحوا في ذلك لأن التعامل مع القاموس الصوفي صعب ويحتاج لنفس صبورة مخيالة وحسن التوظيف وتمثلاته فيكون بذلك شعرهم يحاول محاكاة التصوف ويوظفه لغرض معين كالضياع والألم والفراق والسفر...فكل هذه المواضيع برع المتصوف في تصويرها وهو رحلته إلى خالقه فيحذي الشاعر حذوه

ويقلده ويباغت لغته بغية صنع امتزاج فريد بين التجربة الصوفية والفنية الأدبية، وسنورد بعض أشعار عبد الله العشي الذي يقول:

"كان الطريق واحدا

سلكته بمائه ورمله

وشمسه وظله

يا طريقي الثقيل

ليس لي القمر او ليل

انا سفر دائما.[30]

ويقول أيضا:

وقفت في حراء

قلت لها: هنا أتاني الكتاب آية فآية

حتى استوى كالقصيدة.[31]

والملاحظ في شعر عبد الله العشي استخدامه المفرط للمصطلحات الخاصة بالتصوف لكن نلمح أيضا أنه يعيش حالة ضياع فكأنما يبحث عن شيء غير موجود في الكون لا تدركه أناه ولا عقله. فالشعر خيال يصنع من اللاموجود وجودا.

فالتعالق مع حالة المتصوف موجودة لكنه يتقاطع معه في مناشدته لعالم خاص يعيش فيه عقل الشاعر ووجدانه كما يعيش المتصوف في عالمه الواقع بمنطق تفكيره وعقيدته.

ويستلهم العشي من تجارب المتصوفة فيسبك اللغة على ما سبكوا فيظهر أنه قد نجح في ولوج عالم التصوف لكن من باب الأدب فتكون في ريب من قوله الذي تسكنه روح متشبعة بتمثلات صوفية صنعها النص بتقنيات اللغة، يقول:

"ذبنا معا لكي نصير واحدا لا احد

الصمت مطبق

والشمس في بهائها كأنها

نهر يصب في جسد".[32]

إن التمثل الصوفي في النص الشعري يحتاج أن يعيش الشاعر الحالة أو يؤمن بها كأنه عاشها كما هو الحال عند عبد الله العشي وقويدر قيطون ومحمد بلقاسم ومصطفى الغماري وعثمان لوسير فهؤلاء عايشوا الروح الوجدانية العقدية للتصوف كما لو أنهم متصوفة عند اعتاب الزوايا وماهم إلا شعراء فجروا بلغتهم التجربة من صلب معاناة أرواحهم المعذبة بالغربة عن الذات والمكان والحياة المألوفة يقول العشي وهو يلم بما لاحصر له من استهامات صوفية.

حين أوقفه ملك الملك في موقف الذل

قال له: أنت عبدي

فمن صامتا ما استطعت

وكن خائفا ما استطعت

توحد بذاتي

ولا تفتش سرا العبارة

أقربك من ملكوتي

واكشف لك الستر

الحضرتين

و سر الإشارة.[33]

رابعا-التصوف أبعاد القراءة وسلطة التأويل (دور القارئ الضمني في اقتناص المعنى)

يقول الواحد منا كيف حكمنا على الأمير في شعره على أنه نتاج معتقد راسخ وأن تجربة عبد الله العشي تجربة فنية لكنها بفنيتها كادت تلامس قلب التصوف تماما حتى أن الاختلاف في الرأي حول تصوفه أو لا توحي بالقفزة التي حققها في ميدان الأدبحكمنا على النمطين الشعريين من خلال القراءة التي قادتنا إلى تأويلات اللفظ للوصول لدلالات معينة خاصة بعد مقارنتهما بما عرفنا من شعر شهيد التصوف الحلاج والفارض وابن عربي فتطابقت أشعارهم مع ما قاله الأمير في حين بقيت أشعار البقية تتسامى حينا لتلامس التصوف وتنفصل حينا لتعود للعالم الحسي، ثم تذهب لعالم الشاعر لتستطلع عالم المتصوف علها تجد فيه بعض الراحة فتبقى الروح مضطربة بين العوالم المختلفة في حين روح المتصوف عالقة في عالم واحد لا تبرح مكانها إلا برمزية من العالم الحسي ترفعها معها ولا تنزل بعدها أبدا.

1- شاعرية التصوف وتصوف الشعر

كما أن قراءتنا التأويلية وما قاله النقاد والباحثون حول ياسين بن عبيد في قول الشعر بالصبغة والهيئة الصوفية والذي له ديوان شعري خصه بالشعر الصوفي فحسب هو أيضا يجعل القارئ يشكك في أدبية تصوفه وصوفية أدبه لأن أشعاره صعب فهمها لكثافة اللغة الشعرية والصوفية لكن القارئ العارف يدرك لاحقا وهو يقرأ دواوينه أنه شاعر تقمص التصوف ولم يعشه فقط عاش بلغته؛ تجد كل عناوين

ديوانه تحمل للمفردات الصوفية البحتة"أهديك أحزاني، معلقات أستار الروح، غنائية آخر التيه، الوهج العذري"، وكل قصيدة نجدها تمتص المعاني الصوفية فتزيد من ثقل القصيدة وثراءها المشحون بالإيحاءات البعيدة ليسقط حالة المتصوف على حاله وروحه المتعبة يقول عبد الحميد هيمة في ديوان ياسين بن عبيد:"رغم صغر حجمه فإنه كبير في معناه إنه ترنيمة عذبة في حب الله وأغرودة صافية في تأمل العالم وقراءة صفحات الكون الناصع الجمال كما أنه إيغال في ذات شاعرية هدها الواقع بانكساراته وهزائمه المتلاحقة فراح يبحث عن القراءة في عالم الفن".[34]فكان العمل على جعل القصيدة التي تستوحي من الصوفية مفرداتها وأساليبها بهذه قرابة من عالم التصوف يبين جليا قدرة الشاعر على استهام التجربة الصوفية من خلال شفافية روحه وقدرته على فهم حقيقة شعور المتصوف فكان بين المتصوف في عالمه والتخييل الذي يرقى إليه الشاعر المجد خيط رقيق فاصل يصعب جدا أن تفرق بين كتاباته وكتابات الصوفي.[35]

لكن لا يتأت لكل شاعر ذلك فقط من لامست روحه بعدا دينيا فلا يمكن لشاعر عبثي أن يكتب قصيدة من قاموس المتصوفة فهي وإن سبكت بإحكام فإنها ستبقى عبثية لبعد العالمين. فالتشبع من منبع العقيدة وصفاء الفكر له دور في جعل التجربة الفنية مماثلة لحالة المتصوف فتتشكل الصورة فسيفسائية من المعاني ولع الذات بحب الإله وولاتخرج اللغة عن الالتزام فلما يكتب في التصوف تراه عرفاني كعابد في صومعته لأن اللغة حوت التصور وكانت مستوحاة من العقيدة كما أن روح الشاعر المتصوف أو الذي يحاكيه يستطيع أن يلامس مايعاينه المتصوف في عالمه الفريد دون تكلف أو تلاعب بالألفاظ.

خاتمة

من خلال تناولنا لقضية الأدب الصوفي في الجزائر وخاصة في الشعر وصلنا إلى جملة من النتائج نذكر أهمها:

-هناك فرق كبير بين التصوف كتجربة شعورية عقدية دينية يعيشها المتصوف ويعبر بالشعر عنها كجلال الدين الرومي، ابن عربي، السهرودي... وغيرهم الذين كان التصوف عندهم قضية نجاة ومنه حياة وجعلها شعر هو مخافة التعرض لمضايقات السياسيين والقضاة والفقهاء وهروب من الفهم الخاطئ لتصوراتهم. في حين أن الأدب الصوفي هو تجربة استضافت المعجم الصوفي ليعبر الشاعر أكثر وبعمق عن حالته الشعورية التي احتاجت لمفردات جديدة تنعشها فاجتمعت لغة التصوف والتخييل لتشكيل أدب صوفي مميز.

-كما كان الفرق بين التصوف والأدب الصوفي فإن هناك فرق بين المتصوف والشاعر الذي يكتب وفق إلهام الفكرة الصوفية ومفردات الزهد ومقتضيات حالته التي تضطره ليستعير أحيانا من أساليب القول الصوفي ما يخدم غرضه.

-تطرقنا إلى من عرفناهم شعراء واتضح أنهم صوفيون كالأمير عبد القادر فكل ما أنتجه في التصوف كان وفق معايشة فعلية للحالة الشعورية فقد مر بكل مراحل التصوف حتى بلغ ما بلغ من النضج صوفي ليكون أكثر شاعر كتب في هذا النمط بل وقد زاد شعره الصوفي جمالا جمعه للأدب والتصوف لذا عجز الكثيرون بعده من المتصوفة أن يعبروا باللغة عن حالتهم.

- عجز كثير من الشعراء عن القول لأنهم حملوا اللغة لكن افتقروا للتجربة إلا قلة ممن عرفوا كيف يلجون عالم التصوف دون خوض التجربة الفعلية،بل اكتفوا بالتمثل والوقوف عند مايصل إليه المتصوف والذي يرونه كثيرا عند تجليات دينية كثيرة كالخشوع والمناجاة وغيرها؛ لذا كان صفاء الذهن والروح شرط لأن يجيد الشاعر القبض على منتجات التصوف ليشكلها قولا زاوج بين الفنية والتصورات الصوفية في قمة تداعياتها.بالرغم أن البعض يشترط أن تعاش التجربة الصوفية ليتم تقمصها ثم تحاكي اللغة التي تكون وسيلة فقط تحضن الفكرة العامة للتصوف لكن ليس ذلك

تماما ما يحصل فيمكن للشعراء أن يكتبوا في التصوف وإن لم يكونوا متصوفين كما وجدنا ذلك عند عبد الله العشي وياسين عبيد...

- وبهذا نجد أن التصوف في الشعر الجزائري قد حقق بعضا من أهدافه وحور الخطاب الصوفي وأضاف إليه ما أضاف مبنى ومعنى سواء كان الشعر عموديا أم حرا.فهو اليوم انفتح على أعقد تجربة روحية وأفلح في تقمص بعض مستوياتها وهذا إنجاز يحسب للغة وخصائصها في صناعة التصوف كخطاب ديني فني وصناعة أدب يحاكي التصوف في أعلى مستويات جنوحه وغيبيا.

-تبين من بحثنا أن الأدب الصوفي بقدرما يعتمد على القاموس والمعجم الصوفي فإن حاجته لقارئ فطن مؤول ضرورية لفهم واستكشاف ما أخفي فيه،نظرا لغزارة الدلالة وعمق فكرة التصوف وألفاظها،ولإنصاف الشاعر المبدع الذي خاض التجربة الصوفية بفنيات الأدب وبروح التصوف كتجربة عقدية بامتياز.

-إن خصوصية الأدب الصوفي التي تقوم على الثلاثية مبدع، نص، قارئ، تمنح القارئ وفنية النص كل السلطة تقريبا. وبهذا فهي تفتح مجالا للبحث النقدي للنظر في هذا النمط الكتابي.خاصة المناهج مابعد حداثية التي ستجد في الأدب التفاعلي طرقا جديدة للولوج إليه وإثراء الدرس الأدبي خاصة.

*** *** ***

الهوامش

[1] موسى كراو، الأثر الصوفي في الشعر الجزائري الحديث، مجله الواحات للبحوث والدراسات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف، ميله، الجزائر، المجلد 13، العدد الأول، 2010،

[2] محمد بلعباسي، شعريه اللغة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر، مجله تاريخ العلوم، جامعه الشلف،العدد 06، ص113.

[3] إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف -الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأيمن، د ط، القاهرة، د ت، ص43.

[4] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، (ماده صوف)، بيروت، 2003م، ص08.

[5] اسم الجوزي البغدادي، تلبيس إبليس، دار الفكر، ط3، بيروت، 2001م، ص145.

[6] الكلبابي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود، مكتبه الثقافة الدينية، د ط، مصر، 1998م، ص21.

[7] فؤاد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1985م، ص115.

[8] عبد الرحمن بن خلدون المقدمة، دار الجوزي، ط1، القاهرة، 2010م، ص403.

[9] عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، دط. دار الأمير خالد، الجزائر، 2013م، ص18.

[10] أدونيس، الصوفية والسريالية، دار الساقي، ط3، بيروت، د ت، ص10-11.

[11] بدران بن الحسن، فلسفه الوحدة بين ابن عربي وسبينوزا، حوليات التراث، جامعه مستغانم، الجزائر، العدد 10، 2010م، ص48.

[12] كاظم جهاد، أدونيس منتحلا، مكتبه مدبولي، د ط، القاهرة، 1993م، ص23.

[13] سعيد بوسقطه، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، منشورات المعارف،ط2، القاهرة، 2008م، ص07.

[14] الكريم العلمي، الولاء والولاء المجاور بين التصوف والشعر، نقلا عن ياسين بن عبيد، الشعر الصوفي الجزائري المعاصر، دار الثقافة|، د ط، الجزائر، 2007م، ص22.

[15] رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي، تجليات الحب الإلهي في فلسفة الشعر الصوفي أبو مدين التلمساني أنموذجا -دراسة في تناول العلاقات بين الحب الصوفي والحب المقارن العذري، التواصل الأدبي مجله نصف سنوية محكمه مخبر الأدب العام، كليه الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعه باجي مختار عنابة،الجزائر،العدد 04، جوان 2013م، ص08.

[16] المرجع نفسه، ص99.

[17] عبد الحميد هيمة، الرمز الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر وأليات التأويل مجله المخبر ابحث في اللغة والأدب الجزائري قسم الأدب العربي، جامعه بسكرة، الجزائر، العدد04، 2008م، ص73.

[18] المرجع نفسه، ص79.

[19] موسى كراو، الأثر الصوفي في الشعر الجزائري الحديث، مجله الواحات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف، ميله، الجزائر، المجلد 13، العدد 01، 2010م، ص930.

[20] نوارة لحرش، الأدب الجزائري والتصوف..4 أيلول 2019، تم تجميل هذا المقال على الموقع:
Aaydeen.net يوم 30جويلية 2021م على الساعة 21:04.

[21] صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، ط1،بيروت، 1995م، ص192.

[22] موسى كراو، المرجع السابق، ص926.

[23] المرجع نفسه، ص931.

[24] نوارة لحرش، الموقع السابق.

[25] الموقع نفسه.

[26] العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري (جمع تحقيق شرح)، منشورات تالة، الجزائر، ط1، 2007م، ص122.

[27] الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق: زكريا صيام، ديوان مطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، د ت، ص270-271.

[28] مختار نارة، النزوع الصوفي وحركات التجريب في شعر عبد الله العشي -المحبة الإلهية نموذجا، مجله علوم اللغة وآدابها العدد الثاني، 2020م، ص513.

[29] المرجع نفسه، ص260.

[30] مجلة التمثلات الثقافية والفكرية إبداع وتواصل النقد، جامعه مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، المجلد 04، العدد 01، جانفي 2020م، ص66.

[31] مختار نارة،المرجع السابق، ص67.

[32] المرجع نفسه، ص263.

[33] المرجع نفسه، ص102.

[34] عبد الحميد هيمة المرجع السابق، ص24.

[35] المرجع نفسه، ص24.